بحث محكم | قسم الدين وقضايا المجتمع الرهنة | 28 أبريل 2022

قراءة في مقاربات بعض أعلام المغرب العربي إثر الحرب العالميّة الأولى

الساسي بن محمّد ضيفاوي
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2022
All rights reserved © 2022

الملخّص:

سعينا في هذا البحث إلى تقديم قراءة في مقاربات فاعلين ثقافيين وسياسيين من بلدان المغرب العربي كُتب لهم أن يعيشوا زمن الحرب العالمية الأولى، من خلال نماذج محدّدة، وقد اخترنا من تونس والجزائر الأعلام البارزة التي طبعت الحياة السياسية والثقافية في بداية القرن العشرين على غرار عبد العزيز الثعالبي وعبد الحميد بن باديس، ومقاومين من المغرب وليبيا، وهما عمر المختار ومحمد بن عبد الكريم الخطابي. وقد نهجنا أسلوبا يتمثل في تقديم هؤلاء الأعلام من خلال مقارباتهم السياسية والتربوية، وبعد ذلك قمنا بالتعليق على هذه المقاربات بناء على تسجيل بعض الملاحظات التي ركزت في غالب الأحيان على القواسم المشتركة بين هؤلاء الفاعلين، كما أنّها كلها نتاج واقع الاستعمار. وفي مستوى ثالث أخضعنا هذه المقاربات للنقد، حيث ركّزنا على انبهار كلّ هذه النماذج بالغرب والسعي إلى الاقتباس منه بطريقة انتقائية، إن على مستوى المقاربة السياسية أو على مستوى المقاربة التربوية. ونبّهنا إلى أنّ جلّ هذه التجارب انتهت إلى الانكسار والفشل الذريع في مواجهة الاستعمار نظرا إلى ما يشوبها من تشرذم وانقسام داخلي وارتباك في المواقف، زد على ذلك أنّ مقارباتهم لم تكن جريئة بالقدر الذي يضمن لها النجاح، بل كانت محتشمة في أطروحاتها .

مدخل:

استشفّ زعماء المغرب العربي وقادته زمن أحداث الحرب العالمية الأولى وإثرها أنّ الصراع الدّائر صراع حضاري بامتياز بين قطبين العربي والغربي، خاصة من خلال ما لمسوه من سعي الغرب إلى تطبيق مشروعه المتمثّل في الحركات التبشيرية والسياسة التوسعية والاستيطان ومصادرة الأراضي وإتاحة الفرص أمام الجاليات الأجنبية، وأمام اليهود الوافدين أو الأصليين، ليكونوا في موقع متقدّم على سكان المنطقة المغاربية في التربية والتعليم والإدارة والفلاحة ومختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وكانت كتاباتهم ومواقفهم ونضالهم ومقارباتهم السياسية والتربوية وثيقة تعكس هذه المآلات السياسية والتاريخية والحضارية.

إنّ ما استخلصه رواد المغرب العربي بعد الحرب العالمية الأولى وما آلت إليه من نتائج محلية وقطرية وعالمية، هو أنّ المستعمر ليس قويا بذاته فقط، بل بالذين يصدّقونه ويركبون ركابه ويتعاونون معه، سواء في تونس أو المغرب أو ليبيا أوالجزائر، وهذه الأسباب هي التي أفضت إلى تقسيم المقسّم وتكبيل العالم العربي والإسلامي خاصة بالمعاهدات والمناولات الاقتصادية والنظم المالية من قروض واستثمار وبعث شركات ومصارف وضوابط جمركية، وقد توّج هذا الفهم في العديد من مقارباتهم السياسية والتربوية ومن خلال مختلف طرائقهم العسكرية واستراتجية نضالهم الوطني، الأمر الذي أدّى إلى استياء السلطات الفرنسية والإيطالية والإسبانية فألقت القبض على البعض، منهم مثل عبدالعزيز الثعالبي في تونس، وعبدالحميد بن باديس في الجزائر، ومحمّد بن عبد الكريم الخطّابي في المغرب، وأعدمت البعض الآخر على غرار عمر المختار في ليبيا .

إنّ تلك الاعتبارات جميعا تدعونا إلى دراسة هذا المبحث، غير أنّ ما يهمّنا أكثر في هذا المستوى من البحث هو أنّنا لن نفهم أهمّية ما دعا إليه هؤلاء الرواد المغاربة من مواقف ومقاربات سياسية وتفاعل مع هذه الأحداث التاريخية، ما لم نكن متفطّنين إلى الأحداث الحافة سياسيا وعسكريا التي كانت سائدة قُبيل الحرب العالمية الأولى وبُعيدها، وهو ما نحن عازمون على تفكيكه واستنطاقه وفق ما ورد في كتاباتهم ومقارباتهم ومواقفهم النضالية.

إنّ المنهج الذي سنتوخّى ينهض على استقراء نماذج من كتبهم ومواقفهم وتفكيكها وسبر أغوارها والحفر في منعطفاتها والبحث في مضمرها **توصيفا وتحليلا وتعليقا ونقدا**، ونظرا إلى استحالة الإحاطة بمضامين هذه المقاربات إحاطة وافية وموضوعية في مثل هذا العمل المحدّد، ارتأينا أن نبحث في **المستوى الأوّل** منه، في الوقوف على أبرز المقاربات التاريخية والسياسية والتربوية التي عالجها هؤلاء الرواد، وهل ما طرحوه من أفكار سياسية تتوفّر لهم شروطها وأصولها ونظامها وأبعادها، أو أنّ غاية ما طرحوه في هذه المرحلة هو عبارة عن وجهات نظر وتصوّرات عامّة على صلة وثيقة بظروف العصر وبالسياقات السياسية

وبعوامل تكوينهم الثقافي وبموقعهم من السلطة، غير أنّها اتخذت جميعا في موقف التغيير والإصلاح من أجل التمدّن والتحرّر والاستقلال وحقّ تقرير المصير. أمّا **المستوى الثاني**، فيتمثل في تقييم هذه المضامين ومراجعتها وتنزيلها في سياقها التاريخي والوقوف على نقاط الائتلاف والاختلاف، وانتهينا إلى **المستوى الثالث** الذي نروم أن نوضّح من خلاله هذه المقاربات التي مهما بلغت من وطنية ونضالية لا يمكن أن نقبلها مسلّمة، بل هي لا تستقيم علميا دون نقد باعتبارها عملا إنسانيا.

إنّ إثارة هذه التساؤلات والسعي إلى محاولة الإجابة عنها تعتبر في تقديرنا مدخلا ضروريا لمراجعة بعض الكتب والأطروحات والمقاربات المغاربية قُبيل الحرب العالمية الأولى وأثناءها وبُعيدها، وهو ما سنراه في تضاعيف هذا البحث تباعا.

1- قراءة توصيفية

تُعنى مرحلة التوصيف في هذا المبحث بدراسة الأطروحات السياسية والمقاربات التربوية إبّان الحرب العالمية الأولى وأثناءها وبُعيدها في منطقة المغرب العربي على غرار تونس وليبيا والجزائر والمغرب، وسنحاول أن نقف على علم على الأقلّ من كلّ قطر من هذه الأقطار، ورصد أطروحته والنظر في مواقفه وقراءة مقارباته وما طرحه من أفكار ومضامين، ويمكن أن نتوسل إلى ذلك من خلال جدول يضبط لنا هذه المقاربات في هذه الدول المغاربية.

البلد	المقاربة السياسية	المقاربة التربوية
تونس/ عبد العزيز الثعالبي (1876-1944 م)	إثر الحرب العالمية الأولى، وإثر إلغاء الخلافة العثمانية 3 مارس 1924م، وبناء على الهزيمة التي منيت بها تركيا في الحرب فأضاعت ليبيا في حربها ضد الإيطاليين (1911-1912م) يضاف إلى ذلك ما أقدمت عليه صربيا وبلغاريا ورومانيا من حلف مع اليونان شكّل استقلالا عن الباب العالي، أفضى إلى بناء حلف بلقاني خسرت فيه تركيا، واشتدّ الأمر ضراوة لمّا تحالفت تركيا مع ألمانيا والنمسا، حيث انهزمت وانهارت سنة 1918م أمام ضربات البريطاني والجيش العربي، وانتزعت منها أملاكها في آسيا بمقتضى معاهدة سيفر 1920م[1] (Sever)، في ظلّ هذه السياقات السياسية والعسكرية، قطريا وعالميا استخلص الثعالبي أنّ الأمر في المنطقة آئل إلى الانهيار والتدهور، وأنّ المنطقة العربية وخاصة المغرب العربي في طريقه إلى التخلّص النسبي من السلطة العثمانية «**وكان وصفه السياسي للواقع العربي العام ناتجا عن رؤية عينية أكثر ممّا هو عن ثقافة واطّلاع**»[2]. لكن مقابل هذا الانكسار وخيبة الأمل، فإنّ الثعالبي وغيره من المناضلين والوطنيين شعروا بشيء من التفاؤل خاصة في البلدان المستعمرة إثر ظهور مبادئ الرئيس الأمريكي ويلسون (Woodrow Wilson) الداعية إلى تحرير الشعوب وإنصافها وتأسيس عصبة الأمم وبعض الجمعيات الحقوقية، ولعلّ هذه التغييرات حفّزت الثعالبي والمدّ الوطني المناضل على المطالبة بإطلاق الحرّيات العامّة، مثل حرّية العمل والاجتماع والصحافة والمساواة أمام القانون وتنظيم السلطات العامّة الثلاث وتنظيم مجالس بلديّة وإقامة سلطة قضائية مستقلّة وحرّية التعليم وإجباريته والاعتراف بحقّ الملكية.[3] وقد تعمّقت هذه المطالب بانعقاد مؤتمر «نهج الجبل» للحزب الحرّ الدستوري التونسي بزعامة الأستاذ الحبيب بورقيبة في 12 و13 مايو سنة 1933م، الذي طالب بدستور تونسي وبرلمان منتخب من الشعب ودعا إلى مسؤولية الحكومة لدى هذا البرلمان وضرورة التفريق بين السلط.	تجلت السياسية العنصرية الاستعمارية في الحقل التربوي، إلى جانب الميادين الأخرى مثل الصحّة والوظيفة العمومية، وقد تبدّى ذلك جليّا في مجالات التعليم بمختلف فروعه، إذ كان التلميذ التونسي يتلقّى ثقافة لا تمتّ بأيّة صلة إلى بيئته مما تجعله يعتقد أنّ بلاده مقاطعة من مقاطعات فرنسا، لذلك أجمع المصلحون والسياسيون على أن لا دواء لهذه المعضلة إلاّ بنشر العلم وإجباريته وإنشاء المدارس وتحديث المناهج ومراجعة البرامج التي توطّن الهُوية والانتماء والوطنية، وفهم الثعالبي أنّ «**المدارس في شكلها الحاضر لن تفيد المسلمين بشيء، بل ربّما تكون من أقوى العوامل لتبلبل أفكارهم، وقطع آمالهم [...] والسبب في ذلك عدم وجود منهاج واحد للتعليم**»[4]، كلّ هذه المضامين الثقافية والتربوية لا تستقيم وفق الثعالبي خارج مدار اللغة العربية والدّين والصحافة.

1- انظر، **الموسوعة العربية الميسّرة**، ط1، دار النهضة، بيروت، لبنان، 1981، ج1، ص221

2- بو الخضرة (مسعودة مسعود)، **عبد العزيز الثعالبي ودوره في الإصلاح الإسلامي**، ط1، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، لبنان، 1995، ص131

3- انظر، الثعالبي (عبد العزيز) **تونس الشهيدة**، ترجمة سامي الجندي وتقديمه، ط1، دار القدس، بيروت، لبنان، 1975، ص.ص 207 إلى 211

4- **جريدة الشورى** العدد 117، من خطاب الأستاذ الثعالبي في النادي العربي في بومباي بتاريخ 3 فيفري، مصر، 1927، ص1

الجزائر/ عبد الحميد بن باديس (1889-1940م)	لا يختلف الأمر في الجزائر عمّا عليه في الإيالة التونسية من تضعضع في كلّ المجالات، ومن كرّ وفرّ بين المستعمر الفرنسي من ناحية والشعب الجزائري المناضل من جهة ثانية الذي اعتمد على عنصر المباغتة والسرعة في ضرب مواقع الغزاة، وقد حاول الأمير عبد القادر الجزائري، (1808-1883م) أن يتّخذ من مدينة عسكر عاصمة له نظّم فيها الإدارة وأنشأ بها بعض المصانع الحربية للسلاح والذخيرة، وكوّن جيشا لمقاتلة الغزاة. وقد تنامى هذا الوعي الوطني بين الجزائريين قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها وبعدها، وتعمّقت روح النضال بين أفراد شعبه الذي صمّم على الاستقلال وتحرير الأرض من المستعمر الفرنسي، فبرز العديد من المناضلين والزعماء والقادة على غرار محمّد بن أحمد المقراني وعبد الحميد بن باديس الذي واصل المسار النضالي وحافظ على الحالة الشخصية العربية والإسلامية بالخصوص، ونبّه إلى ضرورة فصل الدولة عن الدّين، ودعا إلى إلغاء كلّ ما اتّخذ ضدّ اللغة العربية وإلى ضرورة إرساء المساواة في الحقوق السياسية.	ينهض البعد التربوي في الفكر الباديسي على أسس قيمية ودينية وجمالية واجتماعية، إذ يبني مشروعه على ثلاثة أركان هي الإرادة والفكر والعمل «**وهذه الثلاثة متفرّقة على ثلاثة أخرى لا بدّ للإنسان منها، فالعمل متوقّف على البدن، والفكر متوقّف على العقل، والإرادة متوقّفة على الخلق، فالتفكير الصحيح، والإرادة القويّة من الخلق المتين، والعمل المفيد من البدن السليم**»[5].

5- الطالبي (عمّار) **كتاب آثار بن باديس**، ط3، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1997، المجلّد الأوّل، ج1، ص104

المغرب/ محمّد ابن عبد الكريم الخطّابي (1882-1963م)	سعت فرنسا إلى إكمال سيطرتها على المغرب العربي وتحقيق مطامعها الاستعمارية فيه، ومع أنّ تاريخ التغلغل الفرنسي الاستعماري في شؤون المغرب يعود إلى ما قبل القرن التاسع عشر، إلاّ أنّ هذا التدخّل اتّخذ صفة استعمارية سافرة عقب الغزو الفرنسي لكلّ من الجزائر وتونس، يضاف إلى ذلك ما عرفته حركة المقاومة المغربية في مرّاكش من بعض نقاط الضعف، ولعلّ هذا الوضع هو الذي أفضى إلى خطّ جديد في المقاومة تزعّمه المناضل عبد الكريم الخطّابي وبعد وفاته خلفه ابنه محمّد عبد الكريم الخطابي الذي نادى بإنشاء مجلس وطني لإدارة حركة الجهاد، ثمّ أقرّ بمعية بعض المناضلين الميثاق الوطني وأعلن استقلال البلاد من الغازي الأسباني وعدم الاعتراف بما يسمّونه معاهدة الحماية، ودعا إلى إنشاء حكومة، وأنّ المجلس الوطني مستعدّ للتفاهم مع إسبانيا على جميع المسائل الموصولة بالاقتصاد والثقافة والاستثمار.[6] بيد أنّه رغم كلّ هذه التسهيلات، فإنّ الجنرال سلفستر (Silvestre) القائم العام للجيش الإسباني في المغرب قد رفض حتى مجرد الاستماع إلى النقاط الواردة في الميثاق، وازداد الأمر عسرا بانضمام فرنسا وتحالفها مع إسبانيا ضدّ المدّ النضالي المغربي.[7]	عمل محمّد بن عبد الكريم الخطابي على نشر الوعي، وتوطين النفس على حبّ الخير والسلامة، والسعي إلى قيم المساواة والعدالة والحرية والديمقراطية والوطنية والوطن والمواطن والتعايش السلمي. ولا غرو في ذلك فالرجل حقوقي ومدرّس وصحفي وسياسي، ولعلّ هذا ما يجعله يتجاوز النظرة الضيّقة القبلية الأمازيغية والإيمان بمفهوم الوطن وبناء الإنسان فكريا ووجدانيا ووطنيا من خلال التمسّك باللغة والتاريخ والانتماء والهُوية وحقّ التعلّم والتعليم.

6- انظر، المساري (محمّد العربي) **محمّد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، لبنان، 2012، ص139 وما بعدها.

7- انظر، نفسه، ص132 وما بعدها.

ليبيا/ عمر المختار (1858-1931م)	نظرا إلى ما تمرّ به إيطاليا من مشاكل سياسية واقتصادية وديمغرافية، وجّهت أنظارها إلى ليبيا في محاولة منها للتخلّص من بعض مشاكلها الاقتصادية، واستخلصت أنّ الحلّ يكمن في امتلاك المستعمرات وبسط نفوذها السياسي والعسكري والثقافي عليها حتّى تحقّق مجالا لهجرة الزائرين من سكّانها واستثمار رؤوس الأموال الإيطالية في العديد من المشاريع. والذي نقف عليه في تاريخ ليبيا، أنّ الوطنيين خاضوا معارك عديدة مع الإيطاليين في طبرق وبنغازي وطرابلس ودرنه والزاوية وعقيدة المطمورة، وبرز العديد من الزعماء قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها على غرار سليمان الباروني وأحمد العيساوي والطاهر الزاوي وحسين الجويفي والمختار بن عمر وغيرهم كثر من زعماء الحركة الوطنية الليبية الذين عقدوا اجتماعات عديدة لدراسة الوضع واتّخاذ ما يلزم من التدابير، وقرّروا إعلان استقلال طرابلس وإرساء سلطة وطنية برئاسة الشيخ سليمان الباروني وتكوين قوّة من الشرطة وجهاز من البريد والمتصرّفين والقضاة، لكن محاولة الاستقلال هذه سرعان ما تهاوت سنة 1913م وكان الحلّ مع الزعيم عمر المختار الذي سيتوخّى نهجا جديدا في مقاومة الغازي ودحره انطلاقا من مدينة برقة والجبل الأخضر الذي اتّخذه قاعدة عسكرية له أنشأ في داخله مركزا لتدريب المتطوّعين في صفوف الثورة هذا على المستوى العسكري. أمّا المستوى السياسي فقد طالب «**بتأسيس حكومة دستورية يرأسها أمير مسلم جامع للسلطات الثلاث الدينية والسياسية والعسكرية مع مجلس نيابي تنتخب الأمّة أعضاءه**»[8].	يبدو العمق التربوي الدّيني والعروبوي والوطني من خلال أبرز المفاوضات التي أجراها عمر المختار مع المستعمر الإيطالي، ومن أبرز المطالب التي اشترطها، أن لا تتدخّل الحكومة الإيطالية في أمور الدّين، وأن تكون اللغة العربية معترفا بها رسميا في دوائر الحكومة الإيطالية، وأن تفتح مدارس خاصّة يدرّس فيها التوحيد والتفسير والحديث واللغة وسائر علوم الدّين، وأن تفتح مدارس لتعليم اللغة العربية والإيطالية على السواء، وأن لا يُحرم الوطنيّون من التعليم العالي، وقد تسلّم الجنرال سيشلياني (Siciliani) هذه الشروط ووعد بأن يعرضها على الوالي بادوليو (Pietro Badoglio) ويوافي عمر المختار بما يتمّ في أقرب وقت ممكن، وعلى هذا انتهت الجلسة.[9]

2- المراجعة والتعليق

الذي يمكن أن نرصده من خلال هذا الجدول هو:

<u>أوّلا</u>، أنّ هذه الأفكار»**أنتجتها وأخصبتها مشاريع وبرامج سياسية مختلفة، حاولت أن تجيب عن عملية بناء الدولة العربية، سواء أكانت هذه الأخيرة دولة قطرية نشأت بفعل مخططات دولية وتوازنات إقليمية ومعطيات اجتماعية محلية، أم كانت مشروعا متوخّى لدولة قومية على مستوى الوطن العربي أو**

8- الزاوي (الطاهر أحمد) **عمر المختار الحلقة الأخيرة من الجهاد الوطني في ليبيا**، ط2، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2004، ص77، من رسالة عمر المختار إلى الأمير محمّد إدريس المهدي السنوسي وهي عبارة عن بيعة إثر مؤتمر غريان.

9- انظر، نفسه، ص.ص 124-125 من حديث المفاوضات بين عمر المختار والمستعمر الإيطالي.

على مستوى إقليم منه»[10]، ولعلّ أغلب هؤلاء الأعلام المغاربة يتّفقون في المنهج والمضمون، وإن اختلفوا ففي بعض الأفكار والتصوّرات، فمن حيث المنهج فهم ينوسون بين الحوارات والمفاوضات حينا والتمرّد والمقاومة المسلّحة أحيانا أخرى، أمّا من حيث المقاربات والمضامين فهم يتناولون سويّا إشكالية الوطن والوطنية والمواطن والاستقلال والحرّية ومركزية اللغة والدّين، ويذهبون إلى نزعة توفيقية لعلّنا نبرّر أنّها نشأت تاريخيا «**في البيئات الأكثر احتكاك بالحضارة، والأكثر انفتاحا على المؤثرات الخارجية، كما أنّها قبلت بالتعايش مع الحكم الأوروبي ومؤثراته الحتمية**»[11].

ثانيا، بناء على تتبّعنا للأحداث سياسيا وعسكريا في منطقة المغرب العربي، وبناء على خضوع هذه الأقطار لسلطة الباب العالي حتى إن كان ذلك رمزيا، فإنّ حدث إلغاء الخلافة في 3 مارس سنة 1924 لم يكن هيّنا، بل أفضى إلى ارتباك وسوء فهم وعدم استيعاب للمؤثرات الخارجية والمتغيرات الداخلية وهضمها، وتداعيات كلّ ذلك على السياقات السياسية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية في الوطن العربي وبصورة خاصة في شمال إفريقيا، وأدّى كلّ ذلك إلى ارتباك سكّان هذه المنطقة واضطرابهم نظرا إلى سطوة المستعمر على ليبيا والجزائر وتونس والمغرب، فأخذ «**يفرض أسلوبه في الإدارة والتشريع، ومنهجه في التربية، ونمطه في الاقتصاد، وعمل على أن يلحق المنطقة بدورته الرأسمالية العالمية حتّى تكون مصدرا للمواد الخام وسوقا استهلاكية بمنتوجاته وممرّا استراتيجيا لطرق تجارته**».[12]

وقد تبدّى هذا التردّد إلى حدّ الارتباك من خلال المواقف المتباينة من إشكالية سقوط الخلافة؛ ففي تونس يرى عبد العزيز الثعالبي أنّ سقوطها يُعدّ منعرجا حاسما في تاريخ العرب والمسلمين، بل لعلّ الأمر في تقديره يعدّ خطأ فادحا، ولعلّ هذا الحماس يترجم تمثيله لدولة العراق في مؤتمر الخلافة الإسلامي في القاهرة سنة 1925م إيمانا منه بأنّ تركيا هي المؤتمنة على الإسلام.

وكذا الأمر بالنسبة إلى عمر المختار في ليبيا، أمّا عبد الحميد بن باديس في الجزائر، فإنّه يرى أنّ الأمر لا يعدو أن يكون عاديا وطبيعيا، لأنّ الخلافة هي إشكالية محدودة بالزمن والسياق التاريخي والظروف التي أفرزتها، بينما محمّد بن عبد الكريم الخطابي كان منشغلا بالتحوّلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحربية لجمهورية الريف ما بين 1921م إلى سنة 1926م، بل رفض الدعوة لإعادة الخلافة، عندما أرسل مندوبه لمؤتمر إعادة الخلافة بمصر سنة 1925م.

ثالثا، إنّ الذي يمكن أن نستشفه من خلال هذه المقاربات السياسية والتربوية أنّها انتشرت في فضاء تسوده المشاحنات والنزاعات والصراعات الاجتماعية والسياسية، نظرا إلى تفشي ظاهرة الفقر والأمية

10- كوثراني (وجيه)، **تاريخ التأريخ، اتجاهات- مدارس- مناهج**، ط2، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، لبنان، 2013، ص128

11- الأنصاري (محمّد جابر) **انشطار العقل العربي**، ط1، المنظّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 2003، ص21

12- Charles Issawi, **Egypt. in révolution**, Published by Oxford, University Press, 1965, P.P: 18-31

والجهل والبطالة والانحراف والنظرة الدونية إلى المرأة، وشيئا فشيئا أفرزت هذه المظاهر تمرّدا وردّة فعل، واتخذت هذه الاحتجاجات أبعادا أخرى، فتحوّلت من فكرة النقد والاحتجاج والمعارضة إلى حركات وطنية وثقافية ذات أبعاد سياسية لمقاومة المستعمر على المستوى السياسي والثقافي بتفاوت من قطر إلى آخر، فبرز في المغرب الأقصى عديد الأعلام منهم شعيب الدكّالي (1878-1937م) ومحمّد بن العربي العلوي (1880-1964م) وعلاّل الفاسي (1910-1974م) ومحمّد بن عبد الكريم الخطابي (1882-1963م)، وفي الجزائر عبد الحميد بن باديس (1989-1940م) وجميلة بوحيرد وعبد القادر الجزائري (1808-1883م)، وفي ليبيا عمر المختار (1858-1931م) ويوسف بو رحيل المسماري (1866-1931م) نائب عمر المختار بعد استشهاده، ورمضان السويحلي (1879-1920م)، أمّا في تونس فهناك عبد العزيز الثعالبي (1876-1944م) وسالم بو حاجب (1827-1924م) ومحمد بن عثمان السنوسي (1850-1900م) والبشر بن مصطفى صفر (1865-1917م)، والذي يمكن أن نستخلصه عندما نقارن بين هذه المقاربات السياسية والتربوية أنّ تونس كان لها السبق لعدّة أسباب منها أوّلا، أنّ تاريخ الاستعمار الفرنسي في تونس كان سنة 1881م، في حين في ليبيا كان الاستعمار الإيطالي سنة 1911م، وفي المغرب سنة 1912م، باستثناء الجزائر الذي كان استعمارها قبل تونس سنة 1830م، ولعلّ هذا ما جعل التونسيين يتمرّسون تنظيرا ومنهجا وممارسة، ثانيا نظرا إلى دور المؤسسة السياسية في عهد أحمد باشا (1837-1855م) الذي شجّع على الحداثة والتعليم فأنشأ المدرسة الحربية 1840م ببارادو التي أولت عناية فائقة باللغات على غرار الفرنسية والإيطالية، والعلوم مثل الهندسة والرياضيات والجغرافيا، ثالثا، مشروع خير الدين باشا (1822-1830م) الإصلاحي، ولعلّ كتابه «**أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**» يُعدّ وثيقة سياسية وإصلاحية تعكس هذا المنهج وهذه المقاربات، رابعا، وجود جامع الزيتونة في هذا القطر، باعتباره منارة علمية ومحفّزا سياسيا ووطنيا، خامسا، نظرا إلى ما تقوم به المؤسسات التعليمية والصحافية والجمعيات من أنشطة متنوعة مثل «**المدرسة الصادقية**» (1875م) و«**الجمعية الخلدونية**» (1896م) وجمعية «**قدماء الصادقية**» (1905م)، وصدور العديد من الصحف الوطنية التونسية منها «**الرائد التونسي**» (1860م) وجريدة «**الحاضرة**» (1888م) وجريدة «**الزهرة**» (1890م)، يضاف إلى ذلك تأثر هذا المدّ النضالي الوطني التونسي بالحركات الثورية والإصلاحية والوطنية في المشرق على غرار زيارات الثعالبي إلى مصر والإسكندرية في 14 جانفي 1913 م ووصل إلى عدن يوم 19 يناير من العام نفسه، وعزم الشيخ الثعالبي على السفر إلى كولومبو يوم 31 يناير 1913م، ومنها سافر إلى الهند ثم إلى سنغفوره يوم الثلاثاء 15 أبريل 1913م[13].

رابعا، إنّ التجربة السياسية في المغرب تُعدّ فريدة من نوعها في منطقة المغرب العربي، بل قد نعدها متميّزة وذلك لعدّة اعتبارات؛ منها أنّ المغرب حاولت أن تتجاوز المدّ القبلي والعروشي وما يترتب عليهما من تداعيات وفُرقة سياسية، يضاف إلى ذلك وهو الأهمّ في تقديرنا يتمثل في الدور الذي لعبه الخطابي من

13- انظر، ابن ميلاد (أحمد) وإدريس (محمّد مسعود)، **الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية (1892-1940م)**، ط1، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1991، ج1، ص.ص 173 إلى 176

حيث توطين عدد من المفاهيم والقيم الجديدة في المنطقة، مثل الوطن والمواطن والوطنية والتقاطع بين السياسي والعسكري، وهو ما خوّل له أن يؤسس أسس جمهورية الريف[14] للدلالة على أنّ هذا الكيان السياسي الذي تمت إقامته على أرض الواقع في الأراضي المحررة، الغاية منه هو النأي بالبلاد عن «**مصطلح المملكة أو السلطة، وذلك حتى لا يختلط الأمر في المخيلة العامة للشعب، مع نماذج سلبية حاضرة في الأذهان، تمخضت عن تجارب سابقة لم يمر عليها زمن طويل**».[15]

يفضي هذا المسار الخطابي إلى تفكير سياسي ناضج ومتطور يؤمن بأنّ المشروع الديمقراطي يمرّ من القبيلة إلى الوطن، ومن الوطن إلى بناء الدولة الحديثة، وهو ما لا نجده تقريبا في مختلف التجارب السياسية الأخرى في دول المغرب العربي، فالمطالبة بالجمهورية في ليبيا أو في الجزائر أو في تونس كان من المطالب المتأخرة وبُعيد مرحلة النضال واستقلال البلاد.

خامسا، إنّ الذي نلحظه في تفكير زعماء دول المغرب العربي وقادته ومناضليه وإن كان طرحا سياسيا ونضاليا ينهض على الدّين، بيد أنّ هذا الفكر الإصلاحي لم يكن فكرا متشدّدا منغلقا متكلّسا بالضرورة، مثلما لم يكن فكرا ثوريا حداثويا، بل هو فكر يميل إلى التوسّط والاعتدال، وإن لمسنا فيه أحيانا بُعدا اشتراكيا أو يساريا أو ما يمكن أن نعبّر عنه بالإسلام اليساري على غرار ما نقف عليه من تعلق الثعالبي مثلا بالفكر التحرري الإصلاحي اليساري، والدليل على ذلك انخراطه في المنحى الاشتراكي واليساري بصورة عامّة، فانضمّ إلى «**الجامعة التونسية للفكر الحرّ**» (La libre pensée)[16] بل أسّس جمعية سمّاها «**مجمع التعاليم الاشتراكية**»، وسعى إلى أن يجمع من حوله العديد من رجال الفكر والثقافة ذوي النزعة الاشتراكية ضمن هذا العمل الجمعياتي، ففي رحلته إلى باريس في جويلية 1919م بمناسبة انعقاد مؤتمر الصلح بفرساي، كان للثعالبي نشاط حثيث خلال وجوده بباريس فاتصل برجال الصحافة هناك للتعريف بالقضية التونسية، واستمال أعضاء الأحزاب اليسارية ومنهم (Herriot) رئيس الحزب الراديكالي، و(A. Berthon) نائب البرلمان الاشتراكي، وكذلك (Mouter) الذي كان من أعضاء البرلمان الفرنسي و(Henry de Chambon) رئيس تحرير المجلة البرلمانية التي ساندت القضية التونسية[17].

ولا ضيْر في ذلك، فالرجل نجد له امتدادا في هذا الطرح السياسي والثقافي من خلال تآليفه مثل «**روح القرآن**» و«**تاريخ شمال إفريقيا**» و«**فلسفة التشريع الإسلامي**» و«**مذكراته في خمسة أجزاء**»

14- كلمة من أصول أمازيغية، وتعني نتوء تضاريس أو جبل حجري يلتقي مع البحر، وهي سلسلة جبلية كبيرة تقع شمال المملكة المغربية، من أبرز مراكز المقاومة الأمازيغية.

15- **من القبيلة إلى الوطن**، ص138

16- انظر، **الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية (1892-1940م)**، جمعية تأسست سنة 1903م وحسب قانونها الأساسي فإنّ هدفه محاربة الجهل والأفكار المسبقة والاعتقادات الفاسدة وتسهم في التطوّر العقلي والعلمي.

« Combattre l'ignorance l'erreur et les préjugés que répandent et maintiennent les religions et les prêtres et pour aider au développement de la raison et de la science ».

17- انظر، **الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية (1892-1940م)**، ص203

و«**معجزات محمّد**» و«**تاريخ التشريع الإسلامي**» و«**محاضراته في جامعة آل البيت ببغداد**» و«**تونس الشهيدة**» و«**الكلمة الحاسمة**»، لقد انفتحت هذه الكتب وغيرها على العديد من المناخات الفكرية والمقاربات السياسية فيما هو موصول بحقوق الإنسان والمرأة والعامل ومناهج فهم النصّ القرآني وطرائق التعامل مع المستعمر، وكيف تحقق المطالب الوطنية بالتفاوض تارة وبالمقاومة المسلحة طورا آخر.

سادسا، بتتبّعنا للنشاط الفكري والثقافي والتربوي في دول المغرب العربي زمن الحرب العالمية الأولى نرصد تقاطعا وتداخلا في هذا الحراك، وقد تبدّى ذلك من خلال صدور العديد من الدوريات والصحف والنشريات والمجلاّت على غرار مجلّة «**المغرب**» وقد صدر عددها الأول في 30 مايو 1916م و«**جمعية تحرير الجزائر وتونس**» في سنة 1916م وأصدرت هذه الجمعية نشرية تحت عنوان «**مطالب الشعب التونسي والجزائري**» في السنة نفسها وأخرى سنة 1917م «**مطالب الشعوب المضطهدة: تونس والجزائر**»[18]، مثلما تمّ إصدار جريدة «**الاتحاد الإسلامي**» وقد كان العدد الأوّل بتاريخ 19 أكتوبر 1911م افتتاحيته بقلم عبد العزيز الثعالبي، وهو تحرّك من التونسيين لمعاضدة الشعب الليبي ضدّ الغازي الإيطالي، بل بادر التونسيون بتكوين لجنة لجمع التبرّعات للمقاومين الطرابلسيين «**لجنة الهلال الأحمر العثماني**» برئاسة علي باش حانبه، بل دفعهم التحمّس للقضية الليبية إلى طلب المشاركة في القتال إلى جانب الليبيين.[19]

وقد اهتمّ الرأي العام التونسي بحرب الريف بالمغرب، وكان مادّة مهمّة للصحافة التونسية التي شنّت حملة واسعة ضدّ أعمال الجيوش الفرنسية في الريف، واعتبرت عبد الكريم الخطابي قائدا كبيرا ورمزا من رموز الوطنية والتحرّر، ووقعت الدعوة إلى جمع التبرعات، وقدّمت مسرحيات تحرّض على الوقوف مع المغاربة في هذه الحرب منها مسرحية «**طارق بن زياد**».[20]

ونلمس هذا التقاطع النضالي من خلال المراسلات والزيارات المتبادلة بين بعض أفراد من النخبة في الجزائر وعنابة، مثل علي دريش وقاسمي عبد القادر والحامي المختار بن الحاج سعيد والشبان التونسيين، بل قد سعى الجزائريون إلى تأسيس «**الجمعية الصادقية**» بعنابه على غرار «**الصادقية بتونس**» وقد تبدّى هذا الأمر الذي يعكس الروح النضالية من خلال الصحف التونسية على غرار جريدة «**التونسي**» و«**الاتحاد الإسلامي**»، والجزائرية مثل « L'islam » و[21]« Le croissant ».

والذي نستخلصه أنّ هذا العمل الجمعياتي والثقافي المشترك بين أقطار المغرب العربي يوحي بأن الوضع الفكري والثقافي يكاد يكون واحدا، لأنّ الطبقة النيّرة تواجه تيارين متباينين يُعدّ الأوّل محافظا متشدّدا

18- انظر، **الشيخ عبدالعزيز الثعالبي والحركة الوطنية**، ص183

19- انظر، نفسه، ص124، وانظر كذلك معركة الزلاج وإضراب الترام، المرجع نفسه، ص.ص 126-127

20- انظر، المداني (أحمد توفيق) **جريدة إفريقيا، مقال الحقيقة حول الحرب الريفية، بتاريخ 25 ماي 1925** وانظر كذلك، **الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية (1892-1940م)**، ص.ص 285-286

21- انظر، **الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية (1892-1940م)**، ص144 وما بعدها.

الذي يرى أنّ الدّين أمر لا يناقش، وهو صمّام الأمان، فكان الانكفاء في الزوايا والتزهّد في الدنيا من خلال الطقوس وإقامة الشعائر وزيارة الأولياء الصالحين بما يشي به هذا التوجّه من بعد خرافي وأسطوري. أمّا التيار الثاني، فلم يكن أقلّ وطأة من الأوّل، وهو التيار المغترب نهائيا المنبتّ، وهو ما جعل روّاد المغرب العربي يختاروا طريقا ثالثا يتمثّل في نهج المقاومة وتحرير البلاد من كلّ مظاهر الاستعباد والاستبداد هذا عسكريا. أمّا ثقافيا، فكان الاعتدال والتوسّط بين الدّين والدنيا.

ولعلّ «**تأثيرات الدخول الأوروبي المتمثل بالامتيازات والتجارة، وبالتدخل العسكري مع مطلع القرن التاسع عشر، وازدياد النفوذ الدبلوماسي وانفتاح الأقنية الثقافية المختلفة**»[22]، كلّ هذه الأسباب توّجت انعقاد المؤتمر العربي الأوّل بين 17 و23 يونيو سنة 1913م في باريس ومن الموضوعات التي تناولها، مناقشة حقوق العرب والنظر في أوضاعهم نظرا إلى ما يجري في الأقطار العربية من أحداث سياسية، وهوما يترجم وحدة النضال والمصير المشترك في دول المغرب العربي، بل بين كلّ الدول العربية والإسلامية.[23]

وتبدو وحدة النضال كذلك من خلال مرحلة الصدام المباشر بقوات الاحتلال على غرار حدوث بعض الانتفاضات التي وقعت في تونس تساوقا مع أحداث الغزو الإيطالي في ليبيا سنة 1911م، فقد وقعت الانتفاضة الأولى في 7 أكتوبر سنة 1911م، وهي حادثة الجلاّز. أمّا الانتفاضة الثانية، فهي حركة مقاطعة الترام يوم 10 أكتوبر سنة 1912م وقد دامت قرابة شهرين، وقد أسهمت أحداث الغزو الإيطالي في ليبيا من تأجيج روح الكفاح ضدّ المستعمرين، خاصة وأنّ الموظفين الإداريين الفرنسيين للشركة عمدوا إلى إيذاء العمّال العرب والسخرية من الليبيين، يضاف إلى ذلك الانتفاضات والاحتجاجات التي حدثت في الجنوب التونسي مطلع سنة 1915م وشاركت فيها قبائل بني زيد ودامت عامين كاملين، والتي تُعدّ في تقديرنا ردّة فعل على المستعمر الإيطالي والفرنسي معا في تونس وليبيا.

وما نلحظه من خلال تاريخ المغرب العربي، أنّ القاسم المشترك بين المناطق هو أنّ السبب المباشر للاستعمار يتمثل في إثقال كاهل الشعب والسلطة الحاكمة بالديون والقروض؛ فقد أنشأ مصرف (دي روما) (Di Roma) فرعا له في طرابلس وآخر في برقة سنة 1905م، وأخذ يقدّم القروض والتسهيلات المصرفية ويستثمر الأموال، كما أنشأت إيطاليا في بنغازي مكتبا للبريد والبرق، وكذا الأمر في تونس إذ حصل الفرنسيون على بعض الامتيازات الاقتصادية منها توسيع ميناء تونس وإنشاء سكك حديد وخطوط برق في البلاد، ولم يتوقفوا عند هذا الحدّ، بل سارعت فرنسا إلى إثقال كاهل الدولة بالقروض والديون وإلى شراء بعض الأراضي التونسية، وعندما حاول الباي محمّد الصادق وقف التغلغل الاقتصادي الفرنسي تدخّل القنصل الفرنسي روستان (Roustan) لدى حكومته مطالبا اتّخاذ موقف حازم من الباي وإجباره على

22- كوثراني (وجيه)، **السلطة والمجتمع والعمل السياسي، من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام**، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1988، ص76

23- انظر، نفسه، ص179 وما بعدها فيما يخص المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس.

منح الفرنسيين تسهيلات مالية جديدة، وقس على ذلك الأمر في المغرب والجزائر[24]، فقد شجّعت الحكومة الفرنسية أصحاب المصارف الفرنسيين على إقراض المغرب، ففي سنة 1904م بلغت قيمة القروض الفرنسية لمراكش قرابة تسعين مليون فرنك فرنسي، وهنا «**يجب التمييز بين القروض التي تقدّمها الدولة إلى أقطار أجنبية، وبين توظيف المؤسسات المالية والتجارية داخل الأقطار العربية**».[25]

3- النقد

أوّلا، تكمن المعضلة العربية والإسلامية خاصة في الانبهار بالشكل إلى حدّ الاغتراب وتغافل الجوهر وكلّ ما يمكن أن يكون أسّا في تقدّم الشعوب وتطوّرها، فظلّ قادة المغرب العربي ينتقون من الغرب ما يرونه باهرا دون النفاذ إلى ما وراء ذلك من منطلقات ونظريات وخصوصيات وأفكار مفصلية تطبيقية موصولة بالإنسان والكون وأسباب التقدّم. ونعتقد أنّ هذه المقاربات، سواء كانت سياسية أو تربوية أو اجتماعية بقيت تراوح مكانها، لأنّها لم تنتبه إلى مشكلة مهمّة تتمثل في إحلال النظرة العقلية العلمية محلّ النظرة الغيبية الدّينية وقصر الدّين على جانبه الروحي الفردي الخالص الذي ينظّم علاقة الإنسان بربّه، لأنّ تديين السياسة مأزق فهي عمل أرضي وتاريخي وبشري، وتسييس الدّين معضلة لأنّه أمر مفارق ومقدّس وسماويّ.

ثانيا، نعتقد أنّ من بعض الأسباب التي أفضت إلى الانكسار وخيبة الأمل والفشل الذريع أحيانا في مقاومة المستعمر الإيطالي أو الفرنسي أو الأسباني، هو سيادة نمط فكري ينهض على أنّ الجهة المستنيرة هي التي تملك الحقيقة المطلقة، وهي المنظرة الوحيدة لحلول كلّ الأزمات والمشاكل، وأنّ الآخر يتمثّل دوره في التطبيق والطاعة باعتباره لم يبلغ الدرجة التي تخوّله أن يحاور ويناقش ويبدي رأيه، وكلّ من يجانب هذه المقاربات يُعدّ خائنا وطنيا ومارقا وخارجا عن الملّة والدّين، وهو نمط يحيل على الإقصاء والرفضية والبدعة والإلحاد واتهام الآخر حتى إن كان على صواب.

ويمكن أن نمثّل على هذه الأفكار بما نرصده من صراعات وانشقاقات داخل الجبهات الوطنية المناضلة، سواء في تونس أو الجزائر أو ليبيا أو المغرب، ففي تونس كان الصراع على أشدّه بين الثعالبي والحبيب بورقيبة، خاصة لمّا رجع الثعالبي إلى تونس ووجد بورقيبة قد وضع يده على الحزب الدستوري الذي كان الثعالبي مؤسسه. أمّا في الجزائر، فإنّ الأمر لا يختلف كثيرا عمّا في تونس، فقد كان التباين في المواقف والآراء بين ابن باديس- والرجل من أصول أمازيغية- والكثير من المناضلين الجزائريين حول مسألتين مهمّتين في تاريخ الجزائر هما العلاقة مع المستعمر والهُوية الوطنية الجزائرية.

24- Pour en savoir plus, voir: Berques-Jacques, **Le magreb entre les deux guerres**, Ed. Seuil, Paris, 1978, P: 218

25- توبي (جاك) **الامبريالية الفرنسية والولايات العربية في السلطنة العثمانية (1840-1914)** نقله إلى العربية فارس غصوب، مراجعة مسعود ضاهر وتقديمه، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1990، ص69

وفي ليبيا، رغم ما حازه الشيخ البطل عمر المختار من تعاطف الكثير من الناس والمناضلين الخُلص أثناء حياته وخاصة بعد استشهاده، إلاّ أنّ هذا لا ينفي بأنّه واجه العديد من القلاقل الداخلية خاصة من الذين يرون أنّ عمر قد هرم، وأصبح غير قادر على مواصلة الكفاح، بيد أنّ الرجل أصرّ على مواصلة المشوار وقال لمعارضيه «**إنّ كلّ من يقول لي هذا الكلام لا يريد خيرا لي، لأنّ ما أسير فيه إنّما هو طريق خير، ولا ينبغي لأحد أن ينهاني عن سلوكها، وكلّ من يحاول ذلك فهو عدوّ لي**»[26].

أمّا في المغرب، فإنّ محمّد بن عبد الكريم الخطابي لم يكن شاذّا عن هذه المشاحنات والصراعات، فنظرا إلى أصوله الأمازيغية، فقد اتّهم بالانفصالي والشوفيني، وهو براء من كلّ ذلك، ولا نعتقد أنّ رجلا يقول إثر اجتماع مع رجال الرّيف الذين توافدوا عليه بأعداد غفيرة يريدون تنصيبه سلطانا «**لا أريدها سلطنة ولا إمارة ولا جمهورية ولا محميّة [..] أريدها عدالة اجتماعية ونظاما عادلا يستمدّ روحه من تراثنا**»[27] هو قادر على أن يكون انفصاليا عنصريا.

إنّ ما عرفته حركة المقاومة المغاربية في مختلف أقطار المغرب العربي من بعض نقاط الضعف، والصراعات الداخلية منها عدم التنسيق في مرحلة من مراحل نضالها بين مختلف أطرافها المتعدّدة، وسيطرة النزعة القبلية والعروشية، ووقوف بعض القيادات الإقطاعية مع المستعمر حتى تحافظ على مصالحها وموقعها في المنطقة، كلّ هذا من الأسباب التي تنعكس سلبا على الجبهة الوطنية المناضلة، وهي الأسباب ذاتها التي مازالت موصولة بلحظتنا التاريخية نتيجة «**أزمة الأنظمة العربية التي تحمل الكثير من النقاط المشتركة، وأهمّها التسلط واحتكار السلطة وكمّ الأفواه، وتهافت برامج وخطط التنمية وتداعياتها الوخيمة على مستويات العيش والإفقار المتزايد**»[28] إلى يومنا هذا.

ثالثا، لم تكن هذه المقاربات جريئة في طرحها، حتى إن نزّلناها في سياقها التاريخي والسياسي، بل كانت محتشمة في أطروحاتها، لأنّها لم تتبنّ منزع التحديث الجذري الخالص من الغيب وإشكالية القضاء والقدر والمنافحة الإيمانية والطرح السلفي المحافظ، بدعوى المحافظة على الهُوية والخصوصية والانتماء والوطنية والثوابت العربية والدّينية، وكأنّ الفرد إذا انفتح على الحضارات الأخرى وتزوّد علميا واقتصاديا وسياسيا يُعدّ ذلك تنطّعا وانبتاتا، وهو تصوّر في الحقيقة يتصادم مع فطرة الإنسان الذي دأب على معانقة المطلق والبحث في المجهول والسعي إلى حبّ المعرفة والتوق إلى عوالم أخرى.

رابعا، إنّ ما يمكن أن نستشفه من الحركات الوطنية هو التشرذم والانقسام الداخلي وعدم وحدة الكلمة والصفّ، وهو ما نعيش على وقعه في لحظتنا التاريخية، ويمكن أن نمثّل على ذلك بما تبلور نتيجة الكفاح

26- شكري (محمّد فؤاد) **السنوسية دين ودولة**، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1948، ص271

27- بوتبقالت (الطيب) **عبد الكريم الخطابي «حرب الريف والرأي العام العالمي»**، ط1، سلسلة شراع، المغرب، 1997، كتاب الرابع عشر، ص89

28- كوثراني(وجيه)، **أزمة الدولة في الوطن العربي، مجلة المستقبل العربي**، عدد 390، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2011، ص111

ضدّ الاحتلال من مواقف في المنطقة العربية، يمكن أن نختزلها في موقفين؛ الأوّل موقف استسلامي من جانب الحاكم القائم وحاشيته، والثاني يمثّل جانب المقاومة البطولية الشعبية للاحتلال مهما كان نوعه ومهما كانت مقارباته، وقد ظلّ هذان الاتّجاهان ملازمين للحركة الوطنية المغاربية طوال فترة النضال الوطني، وسيفرز الاتجاه الأول الشكل المعروف تاريخيا للحركة الوطنية الذي تمثّل في أسلوب المفاوضات والحوار والتصافح والتصالح مع المحتلين والمطالبة بالإصلاحات الجزئية والحلول المبتورة، ويمثّل هذا الاتجاه الشقّ الذي غلبت عليه ثقافة المستعمر، ويمثّل الشقّ الثاني حركات المقاومة المسلحة.

الخاتمة

إنّ الذي يمكن أن نلحظه بوضوح في خاتمة هذا المبحث، أنّه بمجرّد اندلاع الحرب العالمية الأولى بدأت المنطقة المغاربية تعيش مرحلة جديدة أكثر إيغالا في الاستبداد والسيطرة والتضييق، فوقعت مصادرة الحريات ومنع النشاط السياسي وزاد الحصار البوليسي، ونشطت الجوسسة الألمانية ومخابراتها بغية إشاعة أخبار تتمثل في إشاعة الانتصارات الألمانية في الشارع المغاربي للدعاية الفرنسية، وأدّى التجنيد للحرب إلى تفريغ الأسر العربية والإسلامية، يضاف إلى ذلك اجبار الشباب التونسي والمغربي والجزائري والليبي على العمل بأراضي المعمرين.

والذي يمكن أن نستشفه أنّ المستعمر الفرنسي والإيطالي والأسباني استغل أقطار المغرب العربي استغلالا فاحشا اقتصاديا، فسخّر الثروات الاقتصادية في هذه الأقطار لمصلحته دون اهتمام بمصالح السكّان، مثلما أقدم على انتزاع الأراضي الزراعية من أصحابها ووزّعها على المستوطنين الفرنسيين والإيطاليين والإسبان واليهود، وعمل على نشر ثقافته ولغته متجاهلا ثقافة هذه الأقطار وخصوصياتها ولغتها وتاريخها، مستهدفا الإجهاز على الشخصية العربية، ولكن رغم كلّ هذه الإكراهات، فإنّ الشعب لم يبق مكتوف الأيدي إزاء هذه السياسة الاستعمارية في المغرب العربي وشمال إفريقيا وفي المنطقة العربية ككلّ، بل نظّم صفوفه ووحّد كلمته ولو كان ذلك نسبيا بغية دحر العدوّ، وقد تشكّل ذلك من خلال العديد من الثورات العربية في مختلف هذه الأقطار.

إنّ الهدف التربوي والثقافي والسياسي والاقتصادي للمستعمر الإيطالي والفرنسي والإسباني في منطقة المغرب العربي يتمثل في مزيد شرذمة هذه الفُرقة العربية وتهميشها وتقسيم مقسمها، وتجذير لغته مكان لغة هذه الأقطار، وهو ما يفسّر الدعم المباشر والتمويل المستمرّ والتخطيط للعمل المستقبلي في المنطقة، وذلك من خلال إرساء مكاتب ومدارس وجمعيات ومؤسسات تعليمية وسياسية أجنبية في هذه المناطق المستعمرة، وحتّى تزدهر التجارة والمصالح الاقتصادية والمالية للمستعمر في المنطقة المغاربية أقبل على توظيف العديد من المشاريع التربوية والخطط الثقافية من أجل الدفاع عن وجوده في المنطقة، لذلك سعى إلى تنشيط المجال الثقافي وتنميته، باعتباره عاملا من عوامل تثبيت الوجود في المنطقة، وفي المقابل قام بمسخ الذات

العربية وتهميشها، ونحا منحى يشبه ما تقوم به ألمانيا في العراق وتركيا وبريطانيا في مصر وغيرهم من الدول الاستعمارية.

وقد تبيّن لنا من خلال هذه المقاربات التاريخية والحضارية والسياسية التي تناولناها بالدرس أنّ الحديث عن هذه المرحلة التاريخية هو حديث مهمّ ومفصلي، حتى نستخلص منه العبر ونقتدي بتصويب الخطإ، ونتعلم الدرس التاريخي والحضاري بدل أن نتألّم ونقف على الأطلال، ونسعى إلى أن نتجاوز عوضا أن نتكلّس ونتقوقع، وأن يكون تاريخ الحرب العالمية الأولى وتداعياتها على المنطقة حافزا على المراجعة والنقد لا لجلد الذات، لعلّه بذلك يكون همزة وصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، ولا يمكن أن يتحقق ذلك عمليا إلاّ إذا وعينا أنّ الشعوب التي تقدّمت هي التي سقطت ثم نهضت، وهي التي قرأت تاريخها قراءة علمية ونقدية بغية تطوير الواقع وإصلاح الحاضر واستشراف المستقبل، وحتى نردّ هذه الأفكار والأحداث التاريخية إلى أصولها وسياقاتها السياسية والحضارية لا نجرّدها من الأصالة، وإنّما نجلو ما غمض من هذه الثوابت.

وتبقى الحيرة قائمة، والقلق موجودا، والبحث متواصلا، مادامت الأسئلة القديمة هي ذاتها الحديثة، على غرار ما مدى استفادة الإنسانية من تداعيات هذه الحروب العظمى؟ هل اللاحق تاريخيا وسياسيا نسخة مكرّرة للسابق؟ ماذا استفادت شعوب العالم والمستعمرات الأوروبية وخصوصا منها البلدان المغاربية التي أقحمتها فرنسا في الحرب العالمية الأولى التي لا مصلحة لها فيها؟ هل تجاوز حكّام المنطقة المغاربية حديثا أسباب هذه الحرب وتداعياتها؟ هل كانت مقارباتهم السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية بعد الحربين حلاّ وطنيّا ديمقراطيا؟

قائمة المصادر والمراجع(*)

I- المراجع العربية

- الأنصاري (محمّد جابر) **انشطار العقل العربي**، ط1، المنظّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 2003

- بوتبقالت (الطيب) **عبد الكريم الخطابي «حرب الريف والرأي العام العالمي»**، ط1، سلسلة شراع، المغرب، 1997

- بو خضرة (مسعودة مسعود)، **عبد العزيز الثعالبي ودوره في الإصلاح الإسلامي**، ط1، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، لبنان، 1995

- توبي (جاك) **الامبريالية الفرنسية والولايات العربية في السلطنة العثمانية (1840-1914)** نقله إلى العربية فارس غصوب، مراجعة مسعود ضاهر وتقديمه، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1990

- الثعالبي (عبد العزيز) **تونس الشهيدة**، ترجمة سامي الجندي وتقديمه، ط1، دار القدس، بيروت، لبنان، 1975

- **جريدة الشورى** العدد 117، من خطاب الأستاذ الثعالبي في النادي العربي في بومباي بتاريخ 3 فيفري، مصر، 1927

- الزاوي (الطاهر أحمد) **عمر المختار الحلقة الأخيرة من الجهاد الوطني في ليبيا**، ط2، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2004

- شكري (محمّد فؤاد) **السنوسية دين ودولة**، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1948

- الطالبي (عمّار) **كتاب آثار بن باديس**، ط3، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1997

- كوثراني (وجيه)، **تاريخ التأريخ، اتجاهات-مدارس-مناهج**، ط2، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، لبنان، 2013

- **السلطة والمجتمع والعمل السياسي، من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام**، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1988

- **أزمة الدولة في الوطن العربي**، مجلة المستقبل العربي، عدد 390، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2011

- المداني (أحمد توفيق) **جريدة إفريقيا، مقال الحقيقة حول الحرب الريفية**، بتاريخ 25 ماي 1925

- المساري (محمّد العربي) **محمّد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، لبنان، 2012

- **الموسوعة العربية الميسّرة**، ط1، دار النهضة، بيروت، لبنان، 1981

- ابن ميلاد (أحمد) وإدريس(محمّد مسعود)، **الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية (1892-1940م)**، ط1، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1991

II- المراجع الأعجمية

- Berques-Jacques, **Le magreb entre les deux guerres**, Ed. Seuil, Paris, 1978

- Charles Issawi, **Egypt. in révolution**, Published by Oxford, University Press, 1965

(*) رتّبنا هذه المصادر والمراجع ترتيبا ألفبائيا دون اعتبار (ال) التعريف و(ابن).

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2022

جميع الحقوق محفوظة © 2022